# الغربةُ النفسيةُ في شِعرِ عُبَيدِ بن أيوبِ العَنْبَرِيّ

**محمد أحمد دوابشة**

قسم اللغة العربية والإعلام، الجامعة العربية الأمريكية

**الملخص**

*ينهض هذا البحث بدراسة الغربة النفسية في شعر عبيد بن أيوب العنبري، أحد الشعراء الأمويين الصعاليك، إذ تناول أبعاد هذه الغربة، فوجدها تتمثل في مظاهر عدة منها: الخوف والهّم والقلق والاضطراب والتشاؤم والحنين، مما أدى بالشاعر إلى لجوئه للحيوانات ومصادقتها، فراح يجالسها وتجالسه ويبثها مشاعره وهمومه.*

*إن هذه المظاهر معاً شكلت حياته في بيئة الصحراء الموحشة، فجاءت حياته مضطربة، عانى منها الشاعر بشكل واضح، فوجدت صداها في غربة نفسية مؤلمة، مما جعلته يتفرد بهذه السمة بين شعراء عصره.*

***الكلمات الدالة:*** *الغربة –القلق – الشعر الأموي – الحنين.*

## الغربة في اللغة والاصطلاح

ترجع كلمة غربة في اللغة إلى الجذر الثلاثي( غَ رَ ب )، وقد ورد معنى الغربة في المعاجم اللغوية بدلالات ترتبط بالمكان والانتقال منه، ويوحي معناها إلى أكثر من دلالة، لعل أبرزها وضوحاً تلك التي ترتبط بالمكان وما له علاقة به، يقول الأزهري" يقال: الغَرْبُ الذهاب والتّنحي، ويقال أغربتُهُ وغرّبتُهُ إذا نحيّتهُ " والغَربُ أيضاً هو التّنحي عن حد الوطن، ويقال غَرّبَ الأميرُ فلاناً، إذا نفاه من بلدٍ إلى بلد (الأزهري: مادة غرب) أما صحاح الجوهري فيورد " التّغريبُ النّفيُ عن البلاد، وأيضاً غَرُبَ بَعُدَ، وأغرَبَ عنّي: أيّ تَبَاعَد" (الجوهري، مادة غَرَبَ ). والغَرْبُ في لسان العرب: الذّهاب والتّنحيّ عن الناس، وقد غَرَبَ عنّا يَغرُب غَرْباً، وغَرّبَ، وأَغربَ، وأغرَبَهُ، نحّاه، والغَربةُ والغَربُ البُعد والنّوى، والتّغريبُ النّفيُ عن البلد الذي أنت فيه، والغُربة والغُربُ: النزوح عن الوطن والاغتراب قال الملتمس:

أَلاَ أَبْلِغَا أفنَاءَ سعْدِ بنِ مالكٍ رَسَالَةَ مَنْ قَدْ صَارَ في الغرْبِ جَانبُهْ

(ديوانه: ص 65)

واغتربَ الرجلُ: نكحَ في الغرائبِ، وتزوجَ إلى غيرِ أقاربِه، واغتربَ الرجلُ: صار غريباً، ورجلٌ غريبٌ: ليسَ من القوم، قال طهمان بن عمرو الكلابي:

وإنيَ والعَبْسيَّ، في أَرضِ مَذْحِجٍ غَريبانِ، شَتَّى الدارِ، مُخْتلفانِ
غَريبانِ مَجفُوَّانِ أكثرُ همِّنا وجيفُ مَطَايَانَا بكلِّ مَكَان
وَمَا كَانَ غَضُّ الطَّرْفِ منّا سَجِيَّةً ولكنّنَا فِي مَذْحِجٍ غُرُبان

(ديوانه: 160-161)

فالغربة تعني النزوح عن الوطن والبعد عن الديار، والغريب هو الذي فارق أهله ووطنه وارتحل عن بلاده إلى بلاد غيرها، كما قال امرؤ القيس:

أيَا جَارَتَنا إنّا غَريبَانِ هَا هُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسيبُ

(ديوانه: ص 357)

والغريب البعيد عن وطنه، والجمع غرباء، والأنثى غريبة، قال الشاعر:

إذَا كَوكَبُ الخَرقَاءِ لاحَ بِسُحْرَةٍ سُهَيلٌ أذاعَتَ غَزلَهَا فِي الغَرَائِبِ

(لسان العرب: مادة غَرَبَ)

إن مثل هذه الدلالات المكانية هي الدلالة المألوفة التي أشارت إليها المعاجم العربية لكلمة الغربة، ولكن هناك دلالات أخرى تتصل بالمستوى الزمني أو المستوى الروحي، ففي الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغريب الزاني إذا لم يحصن (ابن قيم الجوزية، 1966، 122/2)، قال الشاعر:

وَشَطّ وَلْيُ النّوَى إنّ النّوَى قُذُفٌ تيّاحةُ غربةٌ بالدّار أَحيَانَا

(لسان العرب: مادة غَرَبَ)

نلاحظ أن معنى الغربة في اللغة العربية ورد في جانبين: ديني ونفسي، فلم ترد كلمة الغربة في القرآن الكريم، وإنما ورد الاغتراب في معناه الديني، وذلك بانفصال الإنسان عن الله عز وجل، مثل قصة خلق آدم وهبوطه من الجنة كما صورته صورة البقرة، وفي هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم عندما سُئل عن الغرباء: "الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي" (ابن قيم الجوزية، 1966، 122/2). وفي حديث آخر: " بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء" (المرجع السابق: 123/2). أما النفسي فهو ما نقوم بدراسته عند شاعرنا. إن دلالة كلمة الغربة واشتقاقاتها لا تبتعد عن دلالة البعد والنأي والانفصال سواء المكاني أو الروحي والزماني، وما نقصده من الغربة عند عُبيد هي تلك التي تجمع هذه المعاني كاملة وتصهرها في موضوع واحد، هو الغربة النفسية، بمعنى انعكاسات هذه الدلالات على الشاعر وموقفه منها.

## مدخل

تغفل المصادر التي ترجمت لعُبيد بن أيوب العنبري الحديث عن محيطه القريب وعائلته التي ينتمي إليها، وحياته الأولى، ولكنها تبدأ من ارتكابه جناية اغيرت سلوكه، فأصبح طريداً، ثم تنتقل إلى الحديث عن حياته المشردة وما يصادفه فيها من مصاحبة الغول والذئب وما يخبر في شعره عن مرافقة السعلاة ومبايتة الذئاب والأفاعي ومصاحبة الوحوش واستئناسه بها، إضافة إلى أن المصادر التي وقفت على الشاعر قليلة، ولا تسعف الباحث للحديث عن حياته ونشأته وأسرته، فقد وقفت هذه المصادر عند اسمه واسم أبيه وقبيلته، وتجاوزت ذلك أحيانا إلى ما كان يتصف به مع بعض شعراء عصره، فتذكر عبيد بن أيوب اللص، أو من لصوص العرب، أو هو من اللصوص، ولكنها لم توضح الميدان الذي كان يمارس فيه هذا السلوك. ومثل هذه العبارات لا تتحدد أبعادها من الناحية القبلية أو الجنائية. فهو عند الجاحظ أحد اللصوص (الجاحظ، 1963، 62/4)، وهو عبيد بن أيوب أحد بني العنبر بن عمرو بن تميم (ينظر الجاحظ، 1963 62/4) ويقدم له في مكان آخر "قال عبيد بن أيوب، وقد كان جوالا في مجهول الأرض لما اشتد خوفه وطال تردده، وأبعد في الهرب " (الجاحظ، 1950، 165/6)، ويقدمه المبرد بقوله: " وقال آخر أحسبه من لصوص بني سعد " (المبرد، د.ت، 295/1)، بينما نجد ياقوت الحموي يسميه اللص (الحموي، د.ت، 939/2)، ويقدمه حيناً بواحد من لصوص بني العنبر (الحموي، د.ت، 906/3).

ولكن المتأمل في شعر عبيد بن أيوب لا يجد ملامح الشر أو الإيذاء أو العداوة فيه، وقد حاول ابن قتيبة أن يصور بعض ملامح حياته، وأرى أن هذا يعد نقطة مهمة في معرفة بعض الجوانب عن حياة هذا الشاعر، فهو عنده"... من بني العنبر جنى جناية فطلبه السلطان، وأباح دمه فهرب في مجاهل الأرض وأبعد لشدة الخوف وكان يخبر في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ويايت الذئاب والأفاعي، ويأكل مع الظباء والوحش (ابن قتيبة، 1964، ص 668). ومثله فعل البكري الذي كشف أهمية أخرى

في حياته الأدبية، إذ منحه ميدانا واسعا تحرك فيه تحركا شعريا ناجحا، وقد سجل فيه تجديدا أدبيا وتجربة شعرية أهلته لأخذ المكانة المرموقة في معالجتها، يقول "... وعبيد شاعر إسلامي، وكان لصا مبرا فنذر السلطان دمه، وخلعه قومه، فاستصحب الوحوش وأنس بها وأنست به، وله في ذلك أشعار كثيرة وكان يزعم أنه يرافق الغول والسعلاة." (البكري، 1936، 384/1) وكان يكنى أبو المطراب (المسعودي، 1973، 136/2) و (الحيوان، الجاحظ: 482/4).

إن اللافت للنظر أن صاحب الأغاني لم يترجم للشاعر على الرغم من أنه ترجم لكثير من شعراء عصره الذين تشابهوا معه في سلوكه، ومما يلفت النظر ايضا أن المصادر التي ترجمت له لم تذكر أو توضح طبيعة الجناية أو نوعها، ولكن يبدو أنها كانت جناية كبيرة وأثرها على المجتمع كبيرا، فكانت السبب في خلعه من القبيلة، وإمعانه في الهرب وتفرده في البوادي، ولأن الشاعر تحمل بسببها هذه عواقب كثيرة كانت قوية على نفسه بعيدة الأثر بأهله وعشيرته، لا يجد من يعينه على تخفيف غربته وتبديد همومه وإشعاره بحالة الاطمئنان التي كان يتوق إليها ويتشوق إلى سماعها ويرجو تذوق طعمها، بدليل أن هذه الجناية كانت السبب في إهدار دمه وإباحة قتله، وهو حكم قاسٍ انعكس على سلوكه، ولكننا نعرف من شعره أنه كان شجاعا وأنه ورث هذه الشجاعة عن قبيلته، يقول:

(الطويل)

تَعَوَّدَ مِن آبائِهِ فَتَكاتِهِم  وَإِطعامَهُم في كُلِّ غَبراءَ شَامِلِ

(ديوانه: 223)

أجمعت مصادره بأنه من لصوص العرب على الرغم من أن شعره الذي يكشف جزءا من حياته يظهره بهيئة أخرى ويقدمه بسمات أوضح من السمات التي تناقلتها ألسن الرواة، فلا نلمح في شعره ملامح الشر أو نوازع التسلط والاستيلاء، بل كان خائفا متوجسا موغلا في الهرب؛ ليجد في الصحراء ملجأ والفيافي ديارا، والقفار أماكن تستره وتخفيه. لقد عاش عبيد بن أيوب العنبري في حالة من "حالات الاضطراب النفسي الذي يحمل الرجل على أن يكون حذرا إلى أقصى درجات الحذر، خائفا إلى أشد حالات الخوف، ولا بد أن تحمله هذه المشاعر على الابتعاد عن كل مظهر من مظاهر الحياة؛ لأنها أصبحت مرعبة بالنسبة إليه، مخيفة إلى حد الموت، وقد بلورت هذه الانفعالات المضطربة والأحاسيس المشتتة ظاهرة الخوف عند عبيد بلورة كاملة" (القيسي، 1976، 196/1)، لقد اقتصرت ترجمته في مصادره على نتف من أخباره التي لم تترك للباحث مجالا للاجتهاد أو فسحة لبيان الرأي.

## الغربة النفسية في شعر عبيد بن أيوب العنبري

كانت الغربة لونا بائسا من ألوان حياة عبيد ؛ لما كان يحسه من ضيق ويعانيه من حسرة ويواجهه من اختناق، والغربة ظاهرة إنسانية يمكن تتبعها بشكل أو بآخر في مختلف النظم والثقافات والمجتمعات، وتوجد حيث يوجد أفراد وجماعات يشعرون

بتفردهم وتميزهم عن غيرهم وعدم التكيف مع مجتمعاتهم، وهنا تكون الغربة – إن جاز التعبير – غربة طوعية، أو بسبب عدم تقبل مجتمعهم لهم، وبالتالي نفيهم منه، كما هو الأمر عند شاعرنا، الذي خلعه قومه ؛ بسبب صعلكته، وهنا تكون الغربة قسرية، وقد تجلت مظاهر الغربة عند الشاعر في جوانب عدة منها:

- **الـخـوف**

الخوف ظاهرة طبيعية عند الإنسان عندما يشعر بعدم الأمن والطمأنينة، وهذا ما يظهر في شعر عبيد بن أيوب العنبري، لقد جاء الخوف من مصادر مختلفة، جعله يعيش مع حيوان الصحراء ويأنس به ويسكن إليه، فعاش تأزما داخليا بين ما سيكون وما كان، فقد استوطنه الخوف من الطبيعة والإنسان، لذا فهو ينأى في مسعاه ويختار الوحشة والانفراد لعله يتقي الشر الرابض أمامه وخلفه (عطوان، 1970، ص 59).

لازم الخوف عبيد في حله وترحاله، واحتل في نفسه مساحة واسعة، فهو يخاف الصديق لارتيابه منه، فكان يخاف من كل ما حوله، وقد لازمته هذه الظاهرة ملازمة قوية، ومن الطبيعي أن يحمله هذا السلوك القائم على تبعات الخوف مثل: القلق والاضطراب والهم وعدم التوازن النفسي حتى أصبح الخوف عنده "حزنا أو اضطرابا ناشئا عن تخيل شر داهم سيسبب تدميرا أو أذى " (آرسطو طاليس، 1986، ص 118)، يقول:

(الطويل)

لَقَد خِفتُ حَتّى خِلتُ أَن لَيسَ ناظِرٌ  إِلَى أَحَدٍ غَيري فَكِدتُ أَطيرُ
وَلَيسَ فَمٌ إِلا بِسِرِّي  مُحَدِّثٌ  وَلَيسَ يَدٌ إِلا إِلَيَّ تُشيرُ

(ديوانه: ص 214)

ربما كانت ألفة عبيد للحيوان، بسبب الطمأنينه التي وجدها عنده، وكانت بديلا عن طمأنينة الإنسان، ولم يكن هذا ليحدث لولا الإيمان بقضية معينه، تحفز ذهنه باستمرار، وهي ناتجه عن الإحساس بالذنب؛ لأن الصعلوك بشكل عام كان يعتقد أنه آثم، وقد ارتكب جرما، وهو لا يقاتل في سبيل الله؛ لأن هذا مهم في فهم إحساسه بالخوف وشعوره بالإثم، فقد كان أولو الأمر يطلون عليه من داخله ويسيطرون على نفسه، لذلك عاش هذا الخوف، ومن الطبيعي أن يسيطر هذا المناخ على قصائده، يقول:

(الطويل)

لَقَد خِفتُ حَتَّى كُلُّ نَجوى سَمِعتُها  أَرى أَنَّني مِن ذِكرِها بِسَبيلِ
وَحَتَّى لَوَيتُ السِرَّ عَن كُلِّ صاحِبٍ  وَأَخفَيتُهُ مِن دونِ كُلِّ خَليلِ

ديوانه: ص(224–223 )

ويرجع أبو حيان التوحيدي الخوف إلى سببين أحدهما معلوم صريح، والآخر مجهول غامض ينأى عن التعيين (التوحيدي، د.ت، 151/1)، وربما يكون الخوف من المستقبل أحد دوافع الخوف عند الإنسان؛ لأنه يحمل مجاهيل عدة، وقد يحمل ما هو

سيء أو أسوأ؛ فالإنسان بطبعه يتبادر إلى ذهنه السلبي قبل الإيجابي في حال حدوث أو سماع أمر ما. والخوف فعل غريزي ووقائي منشؤه تأثير خارجي (إبراهيم، 1980، ص 105)، وهو يثير في الخائف انفعالات غير سارة كما يقول مصطفى غالب، وهو كذلك يدفع به إلى التوتر والهرب أو التجنب في بعض الأحيان.

لقد تناولت الدراسات النفسية موضوع الخوف، وبينت أنه هو حماية الذات الفريدة ضد أخطار العالمين الخارجي والداخلي (غالب، 1978، ص 13). إن الخوف من المجهول أو العقاب من ذنب ارتكبه الشاعر شكّل هاجسا ملازما له، ففي الوقت الذي يأنس بالذئب نراه يتطير من الحمامة، والحمامة منذ القدم ترمز للمحبة والسلام والوداعة، ولكنها أصبحت عنده رمزا للحزن وشريكة له في البكاء، يقول:

(الطويل)

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ لَقُلْتُ عَدُوٌّ أَوْ طَلِيعَةُ مَعْشَرِ

(ديوانه: 216)

إن الذي يعيش المطاردة والتشرد تفسد عنده العلاقات وتتغيرعنده معنى الأشياء "والإحساس بالمطاردة إحساس غريب، يبعد الإنسان عن عالمه أحياناً من الوحش، وهذه تجربة مميزة جدا والتعبير عنها كذلك"(زراقط 1983، ص405). لقد استوطن الخوف الشاعر وأصبح ظاهرة متميزة، شأنها شأن بقية الظواهر التي تنمو وتكبر، حتى تأخذ شكلا مغايرا لما هو مألوف، وصورة من الصور التي تتراكم على حواشيها نماذج غير مألوفة، يتحمل صاحبها غصصا مقلقة، ويتحرك في إطار من الأوهام التي تحيطه بهالة من النوازع المرعبة، يقول:

(الطويل)

أخو قفرات حالف الجن وانتحى عن الإنس حتى قد نقضت وسائلهْ

(ديوانه: 219–220)

لقد امتلأت حياة عبيد بكثير من الاضطرابات؛ لأن الرجل إذا استوحش تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب وتفرق ذهنه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، ثم جعل ما تصور له من ذلك شعرا تناشده، وأحاديث توارثها، وهذا ما حصل مع الشاعر، لذا فخوفه قد اشتد، وتردده طال، وأبعد في الهرب، فتجسدت له الأشياء على غير حقيقتها، وسيطرت عليه ظاهرة الخوف سيطرة كاملة (القيسي، 1976، 197/1).

نلاحظ سيطرة هاجس الخوف واضحة في شعره من خلال اختيار ألفاظه واستعمال تراكيبه، فهو يكرر ألفاظ (الخوف) وما اشتق منها، مثل: (الريبة)، و(الحذر) و(الذعر) و(الروع) و(الخشية)، وهي ألفاظ تعكس مدى تغلغل هذه المعاني وصورها وتمكنها من نفسه، وسيطرتها عليه وتوقعه لأحداثها، فالألفاظ الدالة على الخوف وما يتصل به وردت بشكل لافت للنظر، ويمكن تعليل ذلك بأن الخوف من السلطة وملاحقة رجالها له في كل مكان، هو السبب وراء ذلك، فكان من الطبيعي أن تكون العلاقة قوية

وظاهرة بين هذا الشاعر والألفاظ الدالة عليها. كما أن الخوف تكرر في عدة حقول دلالية، أبرزها الخوف من المكان والخوف من الله ومن السلطة والخوف من الناس، كما كانت تتحول دلالة اللفظ إلى علاقة تضاد حين ترتبط بالوطن الأم، فالخوف لازمة من لوازم الحياة ومظهر سوي – ما عدا الخوف المرضي – فالخوف " متصل بحفظ البقاء والمخلوق الذي لا يخاف لا يمكن أن يبقى " (فرويد، 1962، ص 26 )، وخوف الإنسان هو أمله في النجاة من أسباب المحن، وفي ذلك برهان ناصع على رغبته في البقاء، وإذا كان الشاعر يعيش في نفسه صراعا مع الخوف، فهو أيضا يعيش صراعا ماديا من أجل الحياة مع السباع والغيلان، يقول:

(الطويل)

أَكَلتُ عُروقَ الشَّري مَعكُنَّ وَالتوَى بِحَلقِيَ نَورُ القَفرِ حَتّى وَرانِيا
وَبِتُّ ضَجيعَ الأُسودِ الجَونِ بِالغَضا كَثيراً وَأَثناءُ الحَشاشِ وسادِيا
فَقَد لاقَت الغِزلانُ مِنّي بلية وَقَد لاقَت الغيلانُ مِنّي الدَّواهِيا
وَمِنهُنَّ قَد لاقَيتُ ذاكَ فَلَم أَكُن جَباناً إِذا هَولُ الجَبانِ اِعتَرانِيا

(ديوانه: 227 )

وفي هذا الجو النفسي ظهرت صورة لتقرع بخطراتها القاتله وجدان الشاعر، وتذكي في نفسه مشاعر التأرق المستمر والذعر الذي لا يهدأ، حتى أصبح يتوجس من كل شيء، ثم يجد في الصحراء وما فيها أنسا وأليفا، بعد أن حرم من الاستقرار الاجتماعي في ظل علاقات مكانية وزمانية مطمئنة، "وقد جاءت ألفاظه صدى قويا لمخاوف المطاردة التي تنذره بالقتل المتربص وعبرت في تضاعيفها عن أصداء واضحة تفيض بإحساسات عميقة بالموت وقوى لمخاطره المحدقة"( الزير 1989، ص402).ومن أسباب الخوف من المجهول، الخوف من الموت، فهو يحس به ويواجهه في كل لحظة، ومما يزيد من غربته أنه سيموت بعيدا عن أهله ووطنه، وقد عبر عن ذلك بشكل دقيق كما في المقابلة بين "يموت وينشر" في قوله:

(الطويل)

أراني وَذئبَ القَفرِ خدنَينِ بَعدَما تَدانى كِلانا يَشمَئِزُّ وَيُذعَرُ
إِذا ما عَوى جاوَبتُ سَجعَ عوائِهِ بِتَرنيمِ مَحزونٍ يَموتُ وَيُنشَرُ

(ديوانه:212)

- **القلق**

وهي حالة أخرى من حالات الاضطراب الداخلي فقد أصبح الشاعر بسببها نموذجاً حياً للدراسة النفسية التي تمنح الدارسين قدرة على متابعة الظاهرة من خلال قلقه الدائم ومشاعره المضطربة، ويصور عبيد بن أيوب حقيقة هذا القلق الذي يستبد بالمطارَد، وما يهجس في دواخله في قوله:

(الطويل)

كَأَنَّ بِلادَ اللّهِ وَهيَ عَريضَةٌ عَلى الخائِفِ المُطرودِ كِفَّةُ حابِلِ
يُؤَنَّى إِلَيهِ أَنَّ كُلَّ ثَنِيَّةٍ تَيَمَّمَها تَرمي إِلَيهِ بِقاتِلِ

(ديوانه: 228)

إنَّ المبالغة في الخوف جعلته يعيش حياة قلقه غير مستقرة، بعيداً عن محيط الناس الطبيعيين، وقد أدى هذا السلوك إلى اختلاف نظرته إلى كل شيء، وتجدد رؤياه، من خلال الشك المتمكن والريبة الثابتة في نفسه، فالخير أصبح خديعة ملفقة، والشر أصبح حقيقة واقعة، وهذا الشك الدائم جعله يشمر للهرب ويستعد للخلاص، فالشر سوف لن يتعداه؛ لأن القلق تمكن من نفسه وصار ملازما له، ولا يعمل إلا في حدود تصوره المقيت، وهو إطار قاتل وحدود ضيقة تفرض على صاحبه أفقا مظلما، وترسم له أبعادا حادة مؤذية.

إن تجربة الشاعر قاسية جداً، فالتشرد والمطاردة ودمه المهدور، قد أباح لجميع الناس اقتناصه فريسة سهلة، فراح يمعن في الفرار، ونفسه تضرب في كل معاني القلق من كل شيء حوله، حتى ليخيل له أن كل من حوله يترصده، يقول:

وَلَيسَ فَمٌ إِلا بِسِرِّي مُحَدِّثٌ وَلَيسَ يَدٌ إِلا إِلَيَّ تُشيرُ

(ديوانه: ص 214)

فتصور أن كل عين تنظر إليه وتريد به شرا، وكل فم يتحدث، إنما يخطط للإيقاع به، وكل يد إنما تتحرك لتناله، من هنا نلاحظ القلق الدائم والتوتر النفسي الملازم له، يقول:

(الطويل)

وَلَكِنَّني لَم يَأتَمني صاحِبٌ فَيَرتابُ بي مادامَ لا يَتَغَيَّرُ
أَلَم تَرَني حالَفتُ صَفراءَ نَبعَةَ تَرِنُّ إِذا ما رُعتُها وَتُزَمجِرُ

(ديوانه: 213)

أظهرت الحالة السلوكية التي عاشها الشاعر علامات مادية، بدت واضحة في جسده، مما غير من نفسيته وطباعة وأخرجته عن من دائرة الإحساس بالأمن والاستقرار والهدوء، فظهر ذلك جليا على بدنه فتضاءل جسمه وتغير لونه، وأنهكت قواه، وهذا جعله يعيش في دائرة مغلقة من القلق، يتضح هذا في قوله:

(الطويل)

كَأَنّي وَآجالَ الظِّباءِ بِقَفرَةٍ لَنا نَسَبٌ تَرعاهُ أَصبَحَ دانِيا
رَأَينَ ضَئيلَ الشَّخصِ يَظهَرُ مَرَّةً وَيَخفى مِراراً ضامِرَ الجِسمِ عارِيا

(ديوانه: 227)

بل إنه أصبح مثل السهم كما في قوله:

(الطويل)

وأصبحت مثل السهم في قعر جعبة نضيا فضى قد طال فيها قلاقله

(ديوانه: 218)

صار القلق حالة مفروضة وطبعا يوجه سلوكه، فطرد الشاعر وخلعه من قبيلته وإهدار دمه، ترك في أعماقه شرخاً عميق الأثر، سجله شعره المشحون بأشجان الغربة ووطأة الوحدة النفسية وقسوة الحرمان من أنس الأهل والدار " بل إن سلوكه كان يخفي وراءه الاستهانة بالحياة والمغامرة الفتاكة المثيرة سخرية مريرة بالحرية الفردية وشعوراً عميقاً بالتمزق والتشرد والضياع" (عبد الرحمن، 1970، ص43). إن القدرة على تصوير نوازع القلق الداخلية وما يرافقها من وساوس وأوهام تكفي لإظهار قدرة هذا الشاعر على التصوير ووضعه في المكان الذي وضع فيه الشنفري وتأبط شراً وبقية الصعاليك الذين حفلت أشعارهم بأمثال هذه الأخبار؛ "لأنه وقع في إطار الظروف النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي وقع فيه أولئك الصعاليك فكانت الصور قريبة والمعاني متدانية والأساليب متواصلة، وأشكال التعبير ووحدات الإحساس وتركيب الهواجس تكاد تأخذ نمطاً واحداً وطريقة متماثلة " (القيسي، 1976، 201/1).

إن تجربة عبيد بن أيوب من هذه الناحية جعلته يعيش حياة مريرة في كل لحظة، إذ جعلته يترقب الموت الذي لا بد من قدومه، لكنه يجهل وقته ومكان حضوره، مما يبالغ في الشعور بالقلق؛ فنراه يتصور نفسه وقد أصبح ممسكا به (رهينة) وسط التراب والأحجار غريبا تسفي عليه الرياح، يقول:

(الطويل)

إِنِّي لأَعلَمُ أَنَّي سَوفَ يَترُكُني صَحبي رَهينَةَ تُربٍ بَينَ أَحجارِ
فَرداً بِرابِيَةٍ أَو وسطَ مَقبَرَةٍ تسفي عَلَيَّ رِياحُ البارِحِ الدَّاري

(ديوانه: 215)

لا يشعر الإنسان بالزمان –في الغالب–إلا من جانب واحد هو الجانب الأسود، جانب الشقاء والمعاناة، والشاعر وهو يحس بهذه المشاعر المريرة تجاه الوقائع في حياته يجد نفسه أكثر ميلا للتنفيس عن نفسه والتخفيف من آلامها بإلقاء اللوم على الزمان، والشكوى مما يكون فيه والنظرة إليه. وقد أحس عبيد بهذه الحقيقة وعبر عنها، وصور هذه الأزمة المستحكمة بينه وبين الزمان في إنتاجه الشعري والمتأمل في شعره يدرك إلى أي مدى كان الإحساس بالزمان مصدرا لقلقه متغلغلا في نسيج البناء الشعري عنده، مما يعكس عمق الإحساس بالزمن لديه كعنصر من عناصر التجربة الشعرية. وراحت رؤياه تتحدد من خلال الشك المتمكن والريبة الثابتة في نفسه.

كما يوظف الشاعر المعاني ذات المدلول الخاص في الفكر العربي، مثل الجن والغول، لما تعكسه من قوة خارقة، ولما تولده من إيحاءات في خلق مشاعر الفزع لدى المتلقي، ولرسوخ تلك المعاني في فكره نراه يشخص الجن ويواجهه مواجهة الند للند في صراع مرير، يخرج منه ظافرا أحيانا ومهزوما أحيانا أخرى، وبذلك يحاول أن يسمو على عوامل القلق التي تسيطر عليه، فهو يحاول خلق نوع من التوازن الداخلي، يقول:

(الطويل)

كَأَنّي وَآجالَ الظِّباءِ بِقَفرَةٍ لَنا نَسَبٌ تَرعاهُ أَصبَحَ دانِيا
رَأَينَ ضَئيلَ الشَّخصِ يَظهَرُ مَرَّةً وَيَخفى مِراراً ضامِرَ الجِسمِ عارِيا
فَأَجفَلنَ نَفراً ثُمَّ قُلنَ ابنُ بَلدَةٍ قَليلُ الأَذى أَمسى لَكُنَّ مصافِيا
أَلا يا ظِباءَ الرَّملِ أَحسن صُحبَتي وَأَخفينَني إِن كانَ يَخفى مَكانِيا
أَكَلتُ عُروقَ الشَّري مَعكُنَّ وَالتَوى بِحَلقِيَ نورُ القَفرِ حَتّى وَرانِيا
وَبِتُّ ضَجيعَ الأُسودِ الجَونِ بِالغَضا كَثيراً وَأَثناءُ الحَشاشِ وسادِيا
فَقَد لاقَت الغِزلانُ مِنّي بلية وَقَد لاقَت الغيلانُ مِنّي الدَّواهِيا
وَمِنهُنَّ قَد لاقَيتُ ذاكَ فَلَم أَكُن جَباناً إِذا هَولُ الجَبانِ اعتَرانِيا
أَذقتُ المَنايا بَعضَهُنَّ بِأَسهُمي وَقَدَّدنَ لحمي وَامتَشَقنَ ردائِيا

(ديوانه: 227)

لقد تميز شعر عبيد بن أيوب بانتقاء الألفاظ لإبراز المضمون وتحقيق نوع من الانسجام في الجانب الصوتي وبخاصة الأصوات المهموسة، التي أفادت دلالة خاصة توحي بتركيز الاهتمام بها، كما مال الشاعر إلى التكرار فوظفه موسيقيا ونفسياً؛ لتثبيت الدلالة التي تلح على نفسه إلحاحاً شديداً، كما استطاع من خلال هذا الأسلوب التكرار أن يرتبط نفسياً بالمكان الأم بعد أن انقطع عنه جسدياً بسبب الغربة.

- **الهـمّ:** إن طبيعته الإنسانية كانت تحدد موقعها بالنسبة لهذه الأشياء تحديداً مؤقتاً لتدخل إلى نفسه قدرة القناعة التي تفرضها عليه حياته الطارئة، حتى إذا استفاق، أدرك الجوهر الحقيقي لهذه الطبيعة وعاد إلى ثوابه، وأدرك أن حياته التي يجب أن يحياها لم تكن هذه، وإنما حياة تعلو عليها بشكلها وحجمها وترتفع عنها بما تحمله من مظاهر، يقول:

(الطويل)

إني لا أعلم أني سوف يترُكُني صحبي رهينة ترب بين أحجار
فرداً برابيته أو وسط مقبرة تسفي على رياح البارح الذاري

(ديوانه: 213 )

تتضمن الأبيات مقارنة وتساؤلا نفسياً مؤلما عن الأصدقاء القدامى، حيث الأهل والوطن والأحبة، حيث الكرامة والأمن، فهذه صور متتابعة ترد في ذهن الشاعر إذا ما تذكر موقفاً أو جاء خبر يتمنى سماعه، وبالتالي تركت صدى حزيناً في نفسه " لذلك كان الحزن طاغيا على أشعارهم – الصعاليك – لعدم إحساسهم بالانتماء الوجداني والفكري لهذا المكان، إذ لم يكن في إمكانهم إقامة علاقة نفسية بينهم وبين الأرض الجديدة، في حين أن العلاقة النفسية ظلت قائمة ومتبادلة بينهم وبين الوطن الذي رحلوا عنه " (عبد الحميد، 1979، ص103 )، ويؤكد بعض هذه المعاني في أبيات أخرى، يقول:

(البسيط)

إن يقتلوني فأجال الكماة كم خُبِّرْتُ قتل وما بالقتل من عارِ
وإنْ نجوتُ لوقتٍ غيره فعسى وكلُّ نفسٍ إلى وقتٍ ومقدارِ

(ديوانه: 215)

إن تكرار كلمة القتل ثلاث مرات في بيت واحد كانت مثيرة لكل الدواعي في استثارة الهموم، وقد استطاع أن يلون الصورة بكل الهواجس المؤلمة ويمنحها كل الألوان القاتمة، بعد أن بقيت الوحدة تلف حياته والغربة تطوي أيامه واليأس يسد عليه نوافذ الحياة. والموت في حياة عبيد الشاعر ليس هو الموت الحقيقي الذي هو نهاية الحياة وتوقفها، وإنما هو صور مكررة نابضة بكل ألوان العذاب ؛ إنه يعيش موتا مستمرا في كل لحظة، ويبقى دائما معه وجها لوجه، فهو مهدور الدم، ويمكن أن يقتل في أي لحظة، فصار الموت عنده ظاهرة من ظواهر الحياة، وفي ممارسته للحياة بهذه الصورة فإنه يعيش موتا مستمرا، إذ يدفن في أثناء مسيرته هذه أجزاء غالية من وجوده وماضيه وشخصيته، إذ فقد الشاعر الثقة في كل شيء، فالشعر" يحتال على الواقع بالخيال، أي أنه يحاول تعمق الواقع بالخيال، فهو إذن لا يهرب منه، بل يغوص فيه، وربما كان الأصح أن نقول إنه إنما يحاول الهروب من حالة إحساسه الحاد بالواقع. واقعه النفسي الذي يموج بألوان الصراع، وهو أدنى منه إلى التخلص منه إلى الهروب" (اسماعيل، دار العودة، 1963، ص44-45).

ظل الشاعر الأموي يحس بالزمان، كما عكس توجسه منه، وقلقه مما يخبئه له، وعدم اطمئنانه لما يجري فيه، ولم يكن شاعر العصر الأموي يصدر عن الفهم الدهري الإلحادي، ويبدو أن الإحساس بالزمان، إنما هو انعكاس للشعور القوي بالذات وما يعتريها من تغير، وما يحدث لها من وقائع في ظل الصراع والفتن في ذلك العصر.لقد تميز العنبري عن الشعراء الصعاليك في أنه كان ينطلق من (الأنا) إلى الـ ( نحن)؛ لأن شعر الصعاليك متميز بالإغراق في إطلاق (الأنا) بدلا من الـ (نحن) والإغراق في نقل الكوامن النفسية الشخصية للحديث عنها بخصوصية تامة، إذ قلما نقل الشعراء الصعاليك صورا وأحوالا جماعية، ولكننا نجد العنبري يصور من خلال موقف فكري ذي طبيعة سياسية يتعلق بتحديد قوة القبائل وضعفها وتهاونها، إذ يذكر أبرز العوامل المسببة لهذه الأحوال، يقول:

(الطويل)

إذا ما أَرادَ اللّهُ ذُلَّ قَبيلَةٍ رَماها بتَشتيتِ الهَوى وَالتَّخاذُلِ
وَأَوَّلُ عَجزِ القَومِ عَمّا يَنوبُهُم تَدافُعُهُم عَنهُ وطولُ التَّواكُلِ

(ديوانه: 223)

كما يبين موقفا فكريا اجتماعيا وتربويا في قوله:

(الطويل)

وَأَوَّلُ خبثِ الماءِ خَبثُ تُرابِهِ وَأَوَّلُ لُؤمِ القَومِ لُؤمُ الحَلائِلِ

(ديوانه: 223)

وأرى ذلك تفسيرا لحاجة الشاعر إلى الـ " نحن " القبيلة والمجتمع، وهذا أيضا يدل على أنه دائم التفكير في حياة مستقرة في المجتمع الطبيعي والحياة الصحيحة مع بني البشر، وليس محاولة تقبل الحيوانات واتخاذها بديلا عن البشر.

لقد اسهم التضعيف على تعميق الدلالة في التعبير عن شدة الحدث وتكراره، بحيث يحقق التأثير والفعالية، وبالتالي يحقق الاستجابة في نفس الملتقى، وكما عكس أيضاً مدى وعي الشاعر في اختيار الألفاظ التي تستطيع التعبير عن تجربته الخاصة، وعلينا أن نعرف أن هروب العنبري لم يكن بسبب عصيان الدولة أو التمرد عليها، ولكنه هروب من يد السلطان وممثليه لجناية جناها ؛ خوفا من العقوبة التي تنتظره، فهو يهاب السلطة ويهرب منها، ولذلك هو دائم التفكير في الذنب الذي ارتكبه، ولكنه في الوقت نفسه يرى ظلما واقعا عليه، فالتفكير الدائم خلق عنده نوعا من الهم الملازم له، فالهم مرحلة متأخرة على الخوف والقلق، وهو نتيجة لهما، يقول:

(الطويل)

تقولُ وَقَد أَلَمتُ بِالإِنسِ لَمَّةً مُخَضَّبَةُ الأَطرافِ خُرسُ الخَلاخِلِ
أَهَذا خَليلُ الغولِ وَالذِّئبِ وَالَّذي يَهيمُ بِرَبّاتِ الحِجالِ الهَراكِلِ
رَأَت خَلقَ الأَدراسِ أَشعَثَ شاحِباً عَلى الجَدبِ بَسّاماً كَريمَ الشَّمائِلِ

(ديوانه: 222)

تنعكس الألفاظ على نفس الشاعر، وتحاول رسم حركاته النفسية بكل دقة، فهذه الألفاظ مثل: خرس – الغول – الذئب – أشعث – شاحب – جدب – توحي بالكآبة والتمزق الداخلي؛ بسبب ظاهرة الغياب، غياب الوطن والقبيلة وفقدان الأهل، فقدان الماضي السعيد بما فيه من حياة خصبة، ولذلك جاءت الألفاظ الدالة على الغربة معادلاً موضوعياً للعقم والجدب والعدم، فالهم صفة ملازمة للشاعر ؛لأنه كان يبتعد في مجاهل الأرض فرارا من العيون والجواسيس وابتغاء الخلاص من العقاب الذي ينتظره ( عطوان، 1970، ص 59).إن الهم المتراكم على الشاعر ومحاولة التخفيف منه ألجأه إلى مخاطبة جمله لإبلاغه ما لا يستطيع بلوغه من رغبة في زيارة الحبيبة، بسبب غموض المستقبل والشعور بانعدام الأمل فيه، يقول:

(الطويل)

أَيا جَمَلي إِن أَنتَ زُرتَ بِلادَها بِرَحلي وَأَجلادِي فَأَنتَ مُحَرَّرُ

(ديوانه: 213)

فتختلط عنده الحقيقة بالخيال، وهكذا تصبح الثنائيات الضدية في حياته بين لذة وألم وشك ويقين، ولكنه سرعان ما يدرك استحالة تحقق ما يتمنى؛ لأن الصحراء الموحشة تحول بينه وبينها، وهو في سجنه الذي وضع نفسه فيه خشية من عقاب السلطة الحاكمة، يقول:

(الطويل)

وَهَل جَمَلٌ مُجتابُ ما حالَ دونَها مِنَ الأَرضِ أَو ريحٌ تَروحُ وَتُبكِرُ
وَكَيفَ تُرجيها وَقَد حالَ دونَها مِنَ الأَرضِ مَخشِيٌّ التَنائِفِ مُذعَرُ

(ديوانه: 213)

إن صورة تحرير الجمل صورة فيها من الإبداع؛ لأنها تؤكد مدى تجذر الروح الإنسانية التي كانت تطبع حياته بطابعها، وهذا مما زاد في ألفته مع حيوان الصحراء والأشياء من حوله، مقابل عدم تقبله الناس، وهذه أيضا صورة من صور أثر الارتباط الوثيق بين الشاعر وبيئته بما فيها من حيوان أليف ووحشي.

- **الاضطراب:** حالة الاضطراب النفسية التي عاشها الشاعر كان يحكمها طابع الصراع، وقد أسهمت حدة الصراع الداخلي في خلق عدم التوازن بين الشعور واللاشعور، فحبه للأرض وتعلقه بالوطن رغبات كان يعاني منها معاناة أليمة، ويتحسس لواعجها بصمت رهيب، ويذكر تشوقه إليها ذكرا تصاحبه اللوعة ويخالطه الحرمان، يقول:

(الطويل)

وَلَو كُنتُ لا أَخشى سِوى فَردِ مَعشَرٍ لَقَرَّ فُؤادي وَاِطمَأَنَّت بَلابِلُه
وَسِرتُ بِأَوطاني وَصِرتُ كَأَنَّني كَصاحِبِ ثِقلٍ حُطَّ عَنهُ مثاقِلُه

(ديوانه: 219)

لقد شكلت مظاهر الغربة النفسية العامة من خوف وقلق وهم اضطرابا عاما انعكس على سلوكه، حتى إننا نرى في أبياته تفصيلا واضحا لهذا الاضطراب، وأصبح الأمر جزءا من شخصيته، فهو يبدأ البيت بأمنية (لو)، وهذه الأمنية –والبحث عنها – هي التي تسبب هذا الاضطراب، وتنفث آلاما حادة؛ لتحقيق الأمن والتوازن النفسي، لذلك اختار الأسلوب الخبري للتعبير عن هذه الرغبة، من خلال تتابع الأصوات المهموسة والمتقاطعة والمتتابعة، لتتفاعل مع موسيقى البيت، كما جاء التقسيم في البيت ليحفظ توازنه الموسيقي.

كما أن لام التعليل في الشطر الثاني تبين سبب الاضطراب النفسي الشديد الذي يعاني منه، لذلك ترادفت الجمل المضارعة؛ لتبين قسوة التجربة وطبيعة الأمنية التي ترنو نفسه إليها، فالفعل ( قرّ ) من الصيغ الموحية بالرغبة في السكينة والتشبث بها، لهذا جاء التضعيف لتخفيف حدة اضطرابها، واختياره لفظ الفؤاد دون القلب؛ لأنه مكمن العواطف والانفعالات، بينما توحي كلمة القلب إلى ذلك العضو من الجسم، ثم يتبعها بجملة أطمأنت بلابله، والطمأنينة أقصى ما يطمح إليه الإنسان، وهو الذي يفتقده الشاعر ويبحث عنه، في حين جاءت كلمة( بلابله )، لتعني انشغال الذهن، وهذا المعنى هو الهاجس المسيطر على الشاعر، فكان اختياره للألفاظ منسجما مع المعني، وكانت ذات بنيات صوتية مرتبطة بالمعنى إضافة إلى أن تكرار أصواتها أضفى عليها إيقاعا مميزا (السويدي، 1997، ص 269).

إن شدة الخوف عند الإنسان تؤدي إلى زيادة الاضطراب أوالانفعال الذي يؤثر على بدنه فيحدث اضطرابا في وظائفه الظاهرة والباطنة، فضلا عما يتركه من تأثير على تفكيره وإدراكه (عاقل، 1978، ص 213). بدت آثار الاضطراب وعدم التوازن بوضوح على الشاعر، فهو قد حرم من لذة الرقاد بعد أن أصبح طريدا تتراءى له الأشياء مرعبة مخيفة، والملامح تتصور له حقائق مفزعة، فيعود إلى نفسه الضائعة ووجوده المبعثر، وحياته المتناثرة يستمد منها النهاية التي اختارها لنفسه أو اضطر إلى اختيارها، وهي نهاية مؤلمة تنبجس من خلالها قسمات شعره، وتطبعه بمسحة خفيفة من مسحات الصوفية، فتجعله يفزع تائبا إلى الله داعيا اليه أو تتعالى صرخته، وقد امتلأت تضرعا وتفجرت أحساسا بالتوبة والعودة، وربما كان عدم الإيمان من جهة والإحساس بالذنب من جهة أخرى وراء هذا الاضطراب، فلو كان مقتنعا بفعله وعمله، لما أحس بكل هذه الاضطرابات ولواجه أولي الأمر بكل ثقة واطمئنان، وبخاصة أننا نسمع منه أصوات التوبة إلى الله، والتوبة تكون بسبب أعمال صدرت في وقت كان فيه الشاعر بلا عقل ولا دين، فالصعاليك – ومنهم عبيد – لم يكونوا على علم واسع بالدين ولم يكونوا من المؤمنين الأتقياء، يقول:

(البسيط)

يا رَبِّ عَفوَكَ عَن ذي تَوبَةٍ وَجِلٍ  كَأَنَّهُ مِن حذارِ الناسِ مَجنونُ
قَد كانَ قَدَّمَ أَعمالاً مُقارِبَةً  أَيّامَ لَيسَ لَهُ عَقلٌ وَلا دينُ

(ديوانه: 225)

وهو لا يطلب إلا قليلاً من الأمن الذي أصبح حاجة ملحة له، يبغيه بكل ما يستطيع من مشاعر، ويسعى إليه بكل وسيلة، وهو يتوسل إلى أولي الأمر أن يتفحصوا في جريمته وموجبات عقوبته، يقول:

(الطويل)

أذقني طعم الأمن أو سل حقيقة  علي فإن قامت ففصل بنانيا
خلعت فؤادي فاستطير فأصبحت  ترامى بي البيد القفار ترامياً

(ديوانه: 226–227)

تكشف لنا الاستعارة في " أذقني طعم الأمن " دلالة المفقود، فقد جفت عيناه النوم؛ بسبب خوفه من الحجاج وانهارت أعصابه وذهب عقله، فعانى من خوف مطبق وتشرد مستمر، إذ استحالت حياته رعبا. فالشعر عنده أصبح حاجة، يعبر بها عن نفسه، ويستبطن في أبياته دواخلها الحزينة وأحاسيسها المذعورة، ولهذا كان بعيداً عن القالب الشعري الجامد، والعبارة الأدبية الجاهزة، ولكننا نجده شاعراً ملتزماً بالبحور المألوفة، وإن كان البحر الطويل هو البحر الغالب على شعره، يقول:

(الطويل)

فَثُرتُ وَقَلبي مُقصَدٌ لِلَّذي بِهِ وَعَيني أَحياناً تجمُّ فَتُغمَرُ

(ديوانه: 213)

إنه يعيش صراعا ماديا ونفسيا مع وحوش الصحراء، وقد تكون هذه الحيوانات رفيقة للشاعر مصاحبة له فتسمعه من أصواتها التي يسمعها من خلال أحاسيسه الروحية الباطنية، فكأنما هي أصداء لما يهجس في روحه من مخاوف وأفكار، بل إنها تكشف فعلا عن خواطر الشاعر ورؤاه التي تستبد بالشاعر وتفرض نفسها على صوره وتشكيلاته الفنية لهذه الصحراء، من خلال هذه (اللوازم الفاقعة) التي يلح عليها الشاعر. وتبدو في (أصوات الجن) و (عزيف الغول وتلونها) التي تتآزر مع وحشة هذه الصحراء، فقد دفعت الغربة العنبري إلى اتخاذ الجن رمزا لما أضحى عليه من الاضطراب وانعدام التوازن الذهني، فحالف عالم الجن، ذلك العالم الخفي، وهذه قضية أشار إليها الجاحظ ونقلتها معظم الدراسات التي تناولت شعر الصعاليك، وهي تدخل في باب الأساطير التي تضخم هدوء الصحراء الميته وظلامها الدامي الذي يتلاعب في أحجامها وصورها، حتى تتملك عليه نفسه اضطرابا وعدم توازن، يقول:

(الطويل)

فَللّه دَرُّ الغول أَيُّ رَفيقَة لصاحبِ قَفرٍ خائف يَتَقَتَّرُ
تَغَنَّت بِلَحنٍ بَعدَ لحنٍ وَأَوقَدَت حَواليَّ نيراناً تَبوخُ وَتَزهَرُ
أَنستُ بِها لَمّا بَدَت وَألفتُها وَحَتّى دَنَت وَاللّهُ بِالغَيبِ أبصرُ
فَلَمّا رَأَت أَلا أُهالَ وَأَنَّني وَقورٌ إِذا طارَ الجنانُ المُطَيَّرُ
دَنَت بَعدَ ذاكَ الرَّوعِ حَتَّى أَلِفتُها وَصافَيتُها وَاللّهُ بِالغَيبِ أَخبَرُ

(ديوانه: 212)

ملأ الرعب أنحاء نفسه واختار الهرب والانقطاع عن الناس، والعيش في البلد القفر والمكان الخالي، وألف الحيوان، وأصبح لا يأمن إلا بمصاحبته وسماع صوته، بل إنه أصبح حليفا للجن، وهذا نوع من الاضطراب في السلوك البشري "وقد يلجأ إلى الاستسلام أو الهرب أو التحدي، ويعتمد ذلك على طبيعة المثير وقدرة الذات على المواجهة والأساليب المتاحة لها" (هوك، 1967، ص 106)، يقول:

(الطويل)

وَسِرتُ بِأَوطاني وَصِرتُ كَأَنَّني كَصاحِبِ ثِقلٍ حُطَّ عَنهُ مثاقِلُه
أَلَم تَرَني حالَفتُ صَفراءَ نَبعَة لَها رَبَذِيٌّ لَم تُثَلَّم مَعابِلُه
وَطالَ احتِضاني السَّيفَ حَتَّى كَأَنَّهُ يُناطُ بِجلدي كَشحُهُ وَحَمائِلُه
أَخو فَلَواتٍ حالَفَ الجِنَّ وَانتَفى مِنَ الإِنسِ حَتَّى قَد تَقَضَّت وَسائِلُه
لَهُ نَسَبُ الإِنسِيِّ يُعرَفُ نَجرُهُ وَلِلجِنِّ مِنهُ شَكلُهُ وَشَمائِلُه

(ديوانه: 219-220)

إن المتأمل في شعره يلاحظ أنه استغل طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع ووسائل التعبير الفني؛ للتعبير عما يجول بخاطره وهواجس نفسه، فنلاحظ في أبياته الأصوات المهموسة ذات الصفة الاحتكاكية التي تحتوي على نسبة عالية من

الصفير، كما نلاحظ دخول حرف الجر الباء على كلمة أوطاني (بأوطاني) الذي يفيد التملك وعدم التنازل وعدم تقبل الوطن الجديد، يقول:

(الطويل)

أَذقنيَ طَعمَ الأَمنِ أَو سَل حَقيقَةً عَلَيَّ فَإِن قامَت فَفَصِّل بنانيا
خَلَعت فُؤادي فَاستُطيرَ فَأَصبَحَت تَرامى بِهِ البيدُ القِفارُ تَرامِيا

(ديوانه: 226-227)

وإلى جانب الحرص على الوطن الأم يبرز جانب آخر، ولعله هو الأهم متمثلاً في استخدام كلمات (العدو) و(الأعداء) و(الاطمئنان) و(الأمن) و(خَلَعت فُؤادي). هذه الألفاظ هي التي كانت تؤدي المضمون الحقيقي الذي كان يختفي وراءه الاضطراب النفسي، وبالتالي فإن "مصدر الإنكار للواقع، هو وسيلة دفاعية، تستهدف رفض حقيقة خارجية مؤلمة للفرد... وتستهدف تحقيق التوازن من خلال إنكار حقائق مؤلمة، تسبب آلاما حادة للنفس الإنسانية " (المرزوقي، 1989، ص 66 ).

- **صداقة الحيوان:** تناول الشعراء الصعاليك في العصرين الجاهلي والأموي موضوع مصاحبة الوحوش من الحيوانات والأليفة منها، وكذلك طرقوا موضوع مصاحبة الجن، فهذا الموضوع ليس جديدا، ولكنه لم يصل إلى المبالغة التي وصل إليها شاعرنا (الجاحظ، 1950، 159/6)، فالعنبري لشدة خوفه من الإنسان أنس بحيوان الصحراء، وأصبح بديلا له عن البشر، يقول:

(الطويل)

وَأَضحى صَديق الذِّئبِ بَعدَ عَداوَةٍ وَبُغضٍ وَرَبَّتهُ القِفارُ البَسابِسُ
تَقَدَّدَ عَنهُ وَاستَطارَ قَميصُهُ وَقَد يَقطَعُ الهِندِيُّ وَالجَفنُ دارِسُ
يَظَلُّ وَما يَبدو لِشَيءٍ نَهارَهُ وَلَكِنَّهُما يَنباعُ وَاللَّيلُ دامِسُ
فَلَيسَ بِجِنِّيٍّ فَيُعرَفُ شَكلُهُ وَلا إِنسِيٌّ تَحتَويهِ المَجالِسُ

(ديوانه: 217)

وقد تجسدت هذه الظاهرة بوصفها موضوعا للحل، كما تجلى هذا الموضوع من خلال ذلك الصراع النفسي والقلق الدائم، ما دفع الشاعر إلى الحياة داخل الذات، حياة يلفها الحزن والكآبة، ويزداد الشاعر غربة كلما تأمل الفضاءات الخارجية، فيحاول أن يتكئ عليها ويحتمي بها ويحصر ذاته أكثر فيها، فيتولد عنده صراع بين الأنا والآخر، الأنا الباحثة عن الأمن والطمأنينة والسلامة، والآخر المهدد للأنا ويحاول فناءها والتخلص منها، لذلك لا يجد الشاعر مخرجا إلا اللجوء إلى الماضي السعيد الذي لا يمكن – في الحالة الطبيعية – إلا العيش فيه، ويتمثل في قومه:آبائه وأجداده، فيلجأ إليهم قائلا:

(الطويل)

تَعوَّدَ مِن آبائِهِ فَتَكَاتِهِم وإِطعَامِهِم فِي كلّ غَبراءَ شَامِلِ

(ديوانه: 223)

ولا بد أن تتوطد بعد كل هذه الألفة أواصر الصداقة، وتنعقد أحلاف الود، ويسود جو المحبة والصفاء بينه وبين هذه الحيوانات التي لم تعرف يوما الألفة مع البشر، ولكنها – وكما يقول عبيد – اطمأنت إليه، ووجدت فيه إنساناً يرتبط معها بالنسب، ويتفق معها في المصير المهدد من بني البشر، وكان يحاول أن يؤكد حقيقة الحلف معها فيقول:

(الوافر)

وَحالَفتُ الوُحوشَ وَحالَفَتني بِقُربِ عُهودِهِنَّ وَبالبِعادِ
وَأَمسَى الذِّئبُ يَرصُدُني مَخَشّاً لِخِفَّةِ ضَربَتي وَلِضَعفِ آدي
وَغَولا قَفرَةٍ ذَكَراً وَأُنثى كَأَنَّ عَلَيهِما قَطعَ البِجادِ

(ديوانه: 211)

وهو حين يعايش عالم الصحراء نراه يختار الذئب؛ للوقوف عنده مع إظهار الإعجاب به، ويحوله إلى معادل موضوعي، وبخاصة حين ينتقل من عالم الصحراء إلى عالم الإنسان، فهذه الألفة التي اشتدت أواصرها، والصحبة التي انعقدت مع هذه الحيوانات، جعلته يقطع الوادي المخوف الذي لا تقطع فجاجه بركب، ولا تمشي فيه الرواحل، ومثل هذه الالتفاتات تولد في نفس السامع الغرابة والتأمل

كما نلاحظ أيضا أن بعض أبيات الشاعر تلونت بلون باهت من الزهد، وطبعت بمسحة خفيفة من مسحات الصوفية، فجعلته يفزع الى الله تائباً، وتتعالى صرخته، وقد امتلأت تضرعاً، وتفجرت إحساساً بالتوبة والعودة، يقول:

(البسيط)

يا رَبِّ قَد حَلَفَ الأَعداءُ وَاجتَهَدوا أَيمانَهم إِنَّني مِن ساكِني النارِ
أَيَحلِفونَ عَلى عَمياءَ وَيَحَهُم مَا علمُهُم بِعَظيمِ العَفوِ غَفّارِ

(ديوانه: 215)

إنها صرخة توحي بنهايته المؤلمة بين جان ومجني عليه، وإذا قدر له أن يتخذ من الموجودات التي أحاطت بحياته الجديدة بعض المظاهر الإنسانية المؤقتة، فهي لم تكن حياة مألوفة ودائمة، فطبيعته الإنسانية كانت تحدد موقعها بالنسبة لهذه الأشياء تحديدا مؤقتا؛ لتدخل إلى نفسه قدرة القناعة التي تفرضها عليه هذه الحياة الطارئة، فالبيت الأخير لا يستمد قيمته الفنية من التشبيه البسيط، ولكن من تدخل الأصوات الانفجارية والصفيرية، يقول:

وَوادٍ مَخوفٍ لا تُسارُ فجاجُهُ بِرَكبٍ وَلا تَمشي لَدَيهِ أَراحِلُه
بِهِ الأُسدُ وَالأَشبالُ مَن عَلِقَت بِهِ فَقَد ثَكَلَتهُ عِندَ ذاكَ ثَواكِلُه
تَباشَرنَ بي لَمّا بَرَزتُ لِعادَةٍ تَعَوَّدتُها وَالعادُ جَمٌّ خَوابِلُه
فَقُلتُ تَنَكَّبنَ الطَريقَ لِمُختَطٍ أَخي شُقَّةٍ غولٍ عَلى مَن يُنازِلُه
فَكَلَّمتُ مَن لَم يَدرِ ما عَرَبِيَّةٌ وَمَن عاشَ في لَحمِ الأَنيسِ أَشابِلُه

(ديوانه: 220)

إن هذه الحيوانات لم تعرف الألفة مع البشر، ولكنها اطمأنت إلى عبيد بن أيوب، ووجدت فيه إنسانا يرتبط معها بالنسب، ويتفق معها في المصير المهدد من بني البشر، يقول:

(الطويل)

لهُ نسبُ الإنسيّ يعرفُ نجلهُ وَللجِنّ مِنهُ خِلقةٌ وشمائلُهْ

(ديوانه: 219-220)

إن من يتأمل شعر عبيد يخيل له أنه أصبح فردا من هذه الحيوانات في سلوكه وهيئته، فهو يخاطبها وتخاطبه، يأكل معها وتأكل معه، نلاحظ ذلك من خلال استخدامه كلمات دالة على ذلك، مثل: (القفر) و(ذئب القفر) و(الوحش) و(العواء) و(ألفة الحيوان) و(رفقة الغول) والتغني بأصوات الجن ومحالفتها و(تكليم الحيوان) و(أكل عروق الشري) وغيرها من العبارات التي توحي بالتغيير في مظاهره البشرية، وكأنه نشأ منذ صغره مع هذه الحيوانات حتى وصل معها إلى هذا المستوى.

- **التشاؤم:** خلقت حياة الشاعر-بصورتها المؤلمة الممزقة -نظرة تشاؤمية عنده، تحددت من خلالها تصرفاته وحركاته وعلاقاته، فوضع نفسه في إطار ضيق فرض عليه الأفق المظلم، ورسم له الأبعاد الحادة المؤذية، ووصل به الأمرأن يرى كل نجوى تعنيه، واستبد به الشك والاضطراب حتى ارتاب في كل صاحب وخليل، يقول:

(الطويل)

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ لَقُلْتُ عَدُوٌّ أَوْ طَلِيعَةُ مَعْشَرِ
وخفت خليلي ذا الصفاء ورابني وقيل فلان أو فلانة فاحذر
إذا قِيلَ خَيْرٌ قُلْتُ هَذَا خَدِيعَةٌ وَإِنْ قِيلَ شَرٌّ قُلْتُ حَقٌّ فَشَمِّرِ

(ديوانه: 216)

فهذه النظرة المتشائمة الملازمة أصبحت نتيجة طبيعية للعنبري، إذ تقطعت روابط الثقة بينه وبين الناس، كما تقطعت قبل ذلك علاقات المحبة والألفة، وانقطع الأصل بالفرع، أي القبيلة بالشاعر، لذلك أرى أن الشاعر كان موفقا في استخدامه الصيغ الفعلية أكثر من الصيغ الاسمية في أبياته السابقة، وسبب ذلك إن كثافة الجملة الفعلية نابعة من طبيعتها وخصوصيتها، فالحركة الفعلية تمتلك الزمان والمكان ".... فالجملة الفعلية قادرة على الإحاطة بالحدث الفعلي والتعبير عنه، على عكس الجملة الاسمية التي تتميز بثباتيتها المكانية والزمانية " (ملاحي، 1989، ص 220 ).إن رصد دلالات الغربة ومرادفاتها عند الشاعر تكشف عن تشاؤمية واضحة في نفسه في بعديها المكاني والاجتماعي من خلال اغتراب داخلي ناتج عن عوامل نفسية داخلية، وآخر خارجي ناتج عن ثقل الواقع الاجتماعي الذي يتجلى من خلال الرفض لمرحلة تاريخية معينة بزمانها ومكانها، لذلك فهو دائم البحث وباستمرار عن الصورة " صورة الماضي المشرق " ولكن دون جدوى، ومن هنا نشأت عنده قضية التشاؤم، فهو يشعر بالفشل في سعيه إلى تغيير واقعه نحو الأفضل.

ومثل هذه الصور والمعاني والمضامين الفكرية الفريدة، هي التي جسدت مشاعره النفسية والعقلية الواضحة التناقض في إبداء التماسك والوعي الدقيق بظروفه وأحواله، فخيبة أمله من التغيير جعلته يروض نفسه مع القفار الخالية وحيوانها المتوحش، يقول (الطويل)

إذا قِيلَ خَيْرٌ قُلْتُ هَذَا خَدِيعَةٌ وَإِنْ قِيلَ شَرٌّ قُلْتُ حَقٌّ فَشَمِّرِ

(ديوانه: 216)

لقد عاش الشاعر أزمة نفسية حادة، فقد معها الإحساس بالأمن والاطمئنان النفسي، لذلك كان التشاؤم نتيجة طبيعية، فبدا يتشاءم من الصديق الوفي؛ لارتيابه منه على الرغم من صدقه، يقول:

(الطويل)

وَأَنتَ طَرِيدٌ مُستَسِرٌّ بِقَفرَةٍ مِراراً وَأَحياناً تُصَبُّ فَتَظهَرُ

فيا ليت شعري هل يعودن مربع وقيظ بأكناف الظليف ومحضر

(ديوانه: 214)

للألفاظ طبيعة (دينامية)، تبرز قدرة الشاعر وتفوقه، من خلال دوال نفسية خاصة، لذلك كانت الأمنيات وسيلة من وسائل التخفيف عن نفسه، كما في قوله " فيا ليت "، إن مثل هذه الزفرات لأمنيات الشاعر تزداد فيها التقنية الفنية، فأصوات الصفير والتفشي تتكرر باستمرار؛ لتوحي بسيطرة الهاجس واستسلامه إليه، كما توحي الأصوات المفخمة – الطاء – الظاء – بحجم المأساة التي يواجهها، كما أن حركة الضمائر والتلاعب الفني فيها أعطى شعره نوعا من المنطلق الفعلي: أنت – شعري – تعودن، كما في قوله:

(الطويل)

أزاهِدَةٌ فِيَّ الأَخِلاءُ أَن رَأَت فَتى مُطرَداً قَد أَسلَمَتهُ تبائلُه

وَقَد تَزهَدُ الفِتيانُ في السَّيفِ لَم يَكُن كَهاماً وَلَم تَعمَل بِغِشٍّ صَياقِلُه

فَلا تَعتَرِض في الأَمرِ تُكفى شُؤونَهُ وَلا تَنصَحن إِلا لِمَن هُوَ قابِلُه

(ديوانه: 221)

إن الإحساس بالإخفاق والشعور بعدم القدرة على التغيير للأفضل أدى إلى التسليم بالواقع والانقياد لحالة الذهول المتمكنة منه، التي بسطت سلطانها عليه وكانت حاضرة دائما في ذهنه، فتجربة الشاعر، هي التجربة الحقيقية الشاملة، ولما كان الموت هوالتهديد الحقيقي الذي يناقض هذه الحياة ويحيلها إلى الانقطاع عن الاتصال بالعالم، فقد زاد ذلك من شعوره بفاجعته القاسية، وإحساسه بفداحة التجربة التي يعيشها، إنه الشعور بالوحدة والغربة وتخلي الأهل والأصحاب عنه في تلك اللحظة؛ ليواجه الموت منفردا لذا احتلت ظاهرة التشاؤم مساحة واسعة عند عبيد، وكأنه ليس ذلك الصعلوك الشجاع، فكانت ذلك الجسر الذي نقلنا إلى

الفقد الحقيقي والانقطاع الذي لا يرجى عودته الذي لا يحمل أملا في المستقبل، ولكن مع نظرته التشاؤمية، نجده يلجأ إلى الله، مما يؤكد تمسكه بالعقيدة وإيمانه بالله وخشيته ومغفرته، يقول:

(البسيط)

يا رَبِّ قَد حَلفَ الأَعداءُ وَاجتَهَدوا أَيمانَهم إِنَّني مِن ساكِني النارِ
أَيَحلِفونَ عَلى عَمياءَ وَيحَهُمُ مَا علمُهُم بِعَظيمِ العَفوِ غَفّارِ
إِنِّي لأَرجو مِنَ الرَّحمَنِ مَغفِرَةً وَمِنَّةً مِن قُوامِ الدينِ جَبّارِ
وَما أَخافُ هَلاكاً بَينَ عَفوِهما وَما يَفوتُهُما المُستَوهِلِ السارِي
إِلَيهِما منهُما أَنجو عَلى وَجَلٍ كَما نَجا خائفٌ خاشٍ لآثاري
أَنا الغُلامُ عَتيقُ اللّه مُبتَهِلٌ بِتَوبَةٍ بَعدَ إِحلاءٍ وَإِمرارِ
خَلَّيتُ باباتِ جَهلٍ كُنتُ أَتبَعُها كَما يُوَدِّعُ سَفرٌ عَرصَةَ الدارِ

(ديوانه: 215)

تتردد الجمل الاسمية في هذا المقطع، غير أنها جمل مقطعة وكأنها تحاكي نفسية الشاعر المتشائمة، فالأساليب الإنشائية التي تضمنت التمني" المتضمن في يا رب " والنداء والاستفهام"، من خلال المشاعر النابضة الصادقة بالتوبة إلى الله، أزالت سمات الخطابة المباشرة وأضفت عليها مدخلاً للإقناع من خلال لجوئه إلى رب العالمين بالألفاظ الدينية، مثل: رب – إيمان – العفو – غفار– عتيق – مبتهل – توبة، كما أنه يقدم هذه اللهفة من خلال أدوات التأكيد: قد – أنّ ؛ ليخلص إلى الاستفهام الاستنكاري" أيحلفون " زيادة في تحقيق هذا الأمر في الواقع، ثم يقدم اسم الفعل "ويح" دلالة على الاستسلام، ولعلمه بأنهم لن يصدقوه، ولذلك نحس في هذا المقطع نظرة التشاؤم واضحة على الرغم من لجوئه إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن الصيغ المستخدمة تدل على سيطرة النظرة التشاؤمية، فلا تحقق له التوازن النفسي مع الارتباط المكاني، فهو يشعر باستحالة تحقيق الأمنيات التي بدأها في قوله " يا رب " وكان المراد أن تنتهي عند نهاية الأبيات " الدار " وهو المستقر والموطن، ويقول:

(الطويل)

فَللّه دَرُّ الغولِ أَيُّ رَفيقَةٍ لِصاحِبِ قَفرٍ خائفٍ يَتَقَتَّرُ
تَغَنَّت بِلَحنٍ بَعدَ لَحنٍ وَأَوقَدَت حَواليَّ نيراناً تَبوخُ وَتَزهَرُ
أَنِستُ بِها لَمّا بَدَت وَأَلِفتُها وَحَتّى دَنَت وَاللّهُ بِالغَيبِ أَبصرُ

(ديوانه: 212)

إنّ اللجوء للأسطورة القديمة الغول التي توقد ناراً بالليل للعبث والتخييل وإضلال السابلة، محاولة لكسر العوائق النفسية، وتمكين النفس من التغلب على الحواجز النفسية، فهذا إحساس طبيعي في نفس الشاعر الذي يعيش حياة حافلة بالترقب والتنقل، لذلك أخذ يستزيد من مظاهر قوته دفعاً لهذا الإحساس الكامن في أعماق نفسه " ولذلك فإن إلحاحه على السير في الصحاري المترامية الأطراف من باب تأكيد تلك الشجاعة وتأكيد أيضاً لمصادقته للذئب والنمر والحيات والغيلان من باب الإتيان بما هو

خارق للعادة، فكأنه أراد أن يثبت أنه يختلف عن غيره من الناس فيفعل ما يخافون منه ويصادق من هو مستحيل على غيره مصادقته " (عبد الحميد، 1979، ص96 ) يقول:

(الطويل)

فَإِنِّي وَبُغضي الإِنسَ مِن بَعدِ حُبِّها وَنَأيِيَ ممَّن كُنتُ ما إِن أزايلُه
لَكَالصَّقرِ جَلَّى بَعدَما صادَ قُنيَةً قَديراً وَمَشوِيّاً تَرفُّ خَرادِلُه
أَهابوا بِهِ فَازدادَ بُعداً وَهاجَهُ عَلى النَأيِ يَوماً طلُّ دَجنٍ وَوابِلُه

(ديوانه: 221)

فالظروف التي عاشها عبيد والإخفاقات في حياته، خلقت عنده هذه النظرة "**وكثيرا** ما يشعر المغترب بالعزلة والوحدة والفراغ النفسي وكذلك شعوه بافتقاد الأمن وسوء العلاقات الاجتماعية وافتقاد الطمأنينة " (خليفة، د.ت، ص 140 )، يقول:

(الطويل)

أَخو فَلَواتٍ حالَفَ الجِنَّ وَانتَفى مِنَ الإِنسِ حَتَّى قَد تَقَضَّت وَسائِلُه
لَهُ نَسَبُ الإِنسِيِّ يُعرَفُ نَجرُهُ وَلِلجِنِّ مِنهُ شَكلُهُ وَشَمائِلُه

(ديوانه: 219–220)

- **الحنين:** نرى في شعر عبيد حنينا واضحا للوطن الأم، ونزوعا فياضا للاستقرار فيه، وهذه مشاعر واضحة على الرغم من أن الشاعر الصعلوك يمتاز بالقوة والصلابة والفتك، ومظاهر الحنين التي نراها عنده، الحنين إلى الأهل والأحبة، **ذلك** أن الابتعاد عن الأهل يفجر نوازع الشوق ومواطن الغربة ولواعج الحب، حتى أصبح الشوق والحنين ظاهرة أخرى من ظواهر شعره، يعبر عنها بحرارة، ويتعامل معها بعطف ويحدد آثارها في نفسه بقدرة متمكنة توحي بعمق أصولها وأصالة تأثيرها، يقول:

(الطويل)

أَلَمَّ خَيالٌ مِن أُمَيمَةَ طارِقٌ وَقَد تَلِيَت مِن آخِرِ اللَّيلِ غُبَّرُ
فَيا فَرحا لِلمُدلِجِ الزائِرِ الَّذي أَتاني في رَيطاتِهِ يَتَبَخترُ
فَثُرتُ وَقَلبي مُقصَدٌ لِلَّذي بِهِ وَعَيني أَحياناً تجمُّ فَتُغمَرُ
إِلى ناعِجٍ أَما أَعالي عِظامِهِ فَشُثٌّ وَسُفلاها عَلى الأَرضِ تَمهَرُ
فَقُلتُ لَهُ قَولاً وَحادَثتُ شَدَّه بِأَعوادِ مَيسٍ نَقشَهُنَّ مُحَبَّرُ
أَيا جَمَلي إِن أَنتَ زُرتَ بِلادَها بِرَحلي وَأَجلادي فَأَنتَ مُحَرَّرُ
وَهَل جَمَلٌ مُجتابُ ما حالَ دونَها مِنَ الأَرضِ أَو ريحٌ تَروحُ وَتُبكِرُ
وَكَيفَ تُرجيها وَقَد حالَ دونَها مِنَ الأَرضِ مَخشِيُّ التَنائِفِ مُذعَرُ

(ديوانه: 213–214)

إن الحنين الذي تثيره أميمة هو الصوت الداخلي الذي استخدمه الشاعر، رمزا لدواعي الاستثارة ووجها من وجوه التعبير عن الحس الداخلي المعبَّر عنه بأميمة، فصيحاته الشعرية: يا فرحا... إلى ناعج... أيا جملي، ترمز إلى قوة التأثير النفسي التي تتركه هذه الصيحات في أعماقه؛ لتتحول إلى زفرات تتسرب من خلالها حالته النفسية الحادة ومشاعره الدافقة، وهي نموذج من نماذج الشعر التعبيري عن دواخل الإنسان، يقول:

(الطويل)

أَيا أَبرَقَي مَغنى بُثَينَةَ أَسعدا فَتىً مُقصَداً بِالشَوقِ فَهوَ عَميدُ
وَقَد كانَ في مَغنى بُثَينَةَ لَو بَدَت عُيونُ مَهاً تَبدو لَنا وَخُدود
لَيالِيَ مِنّا زائِرٌ مُتَهالِكٌ وَآخَرُ مَشهورٌ فَفيهِ صُدودُ

(ديوانه: 209)

فالحنين الدائم لشيء مفقود، والإحساس بخصوبة الماضي وجفاف الحاضر، ونفيه أو رفضه وفقدان الثقة في المستقبل، ولدت عنده فكرة البحث عن البديل، ولكن هذا البديل خلق عنده معاناة روحية منحته غربة أخرى، فتراكمت عليه الهموم، فلا يجد إلا الزفرات؛ لتخفيف الواقع النفسي الذي يعايشه، فالشاعر يحاصره الاحباط حين يرى أنه فرّ من غربة إلى أخرى، يقول:

(الطويل)

وَفارَقتُهُم وَالدَهرُ مَوقِفُ فُرقَةٍ عَواقِبُهُ دارُ البَلى وَأَوائِلُه

(ديوانه: 218)

تبقى لوازم الذكريات هي المثيرة، ودواعي الشوق والحنين، هي البواعث الحقيقية للتخفيف من حالة التشرد والضياع الوجودي، وكثيرا ما كانت أشواق الحنين تمتزج بزفرات الحزن وهو يطوي خوافقه ويثير في دوافعه كوامن المتوجس، يقول:

أَلا لَيتَ شِعري هَل تَغَيَّرَ بَعدَنا عَنِ العَهدِ قاراتُ الظُلَيفِ الفَوارِدِ
وَهَل رامَ عَن عَهدي وُديكَ مَكانَهُ إِلى حَيثُ يُفضي سَيلُ ذاتِ المَساجِدِ

ويقول:

(الطويل)

يا رَبِّ عَفوَكَ عَن ذي تَوبَةٍ وَجِلٍ كَأَنَّهُ من حذارِ الناسِ مَجنونُ
قَد كانَ قَدَّمَ أَعمالاً مُقارِبَةً أَيّامَ لَيسَ لَهُ عَقلٌ وَلا دينُ

(ديوانه: 211–212)

- **اللغة:** جاءت لغة الشاعر حزينة مرتجفة، تعبر عن مكنون نفسه، فطبيعة الموضوع تستدعي ذلك، وحالة الانكسار النفسي رافقها انكسار في اللغة؛ بسبب الهواجس النفسية التي تقلق الشاعر وتجعله يتمادى في الابتعاد لينجو بحياته. لقد وظف الشاعر لغة جزلة متماسكة مصقوله، كما وظفها بغزارة مع التشبيه ومراعاة كل الأطراف المحمودة فيه مع التركيز على المعطيات البصرية والسمعية، وهذان عنصران رئيسيان في تشكيل مادة الإبداع الفني، والشاعر بهذا

يكون أدخل في الوصف الذي يعطي لذة مادية لا جمالية، فالصور الوصفية تبدو مستقلة عن الواقع، إلا أن روعتها تظهر حين تقدم واقعا جديدا كما في قوله:

إذا ما عَوى جاوَبتُ سَجعَ عوائِه بِتَرنيمِ مَحزونٍ يَموتُ وَيُنشَرُ
تَذَللتُهُ حَتّى دَنا وَأَلِفتُهُ وَأَمكَنَني لَو أَنَّني كُنتُ أَغدِرُ

وقوله:

(الطويل)

فَإِنّي وَبُغضي الإِنسَ مِن بَعدِ حُبِّها وَنَأيِيَ مِمَّن كُنتُ ما إِن أُزايِلُه
لَكَالصَّقرِ جَلّى بَعدَما صادَ قُنَيَةً قَديراً وَمَشوِياً تَرَفُّ خَرادِلُه

(ديوانه: 221)

فهذه الصورة الوصفية تميل إلى الإيضاح والإفهام، ولكنها في الوقت نفسه لا تنسى وحدة الأثر النفسي بين الأشياء، وما يميز الصورة عنده التقاطها في حالة الحركة، بحيث يمكن أن نراها وهي تتحرك، وأن نسمعها في العديد من طبقاتها الصوتية، كما في قوله:

(البسيط)

يا رَبِّ عَفوَكَ عَن ذي تَوبَةٍ وَجِلٍ كَأَنَّهُ مِن حذارِ الناسِ مَجنونُ

( ديوانه: 225)

وقوله:

( الوافر )

ظَلَلتُ وَناقَتي نِضوَي فلاةٍ كَفَرخِ الضَّبِّ لا يَبغي وُرودا

( ديوانه: 211)

جاءت معظم قصائد الشاعر على البحر الطويل وهو يليق بعالمه الرحب المتسارع ؛ لأنه يحتوي على ما يسمى تمام التناسب: متراكبة ومتقابلة ومتضاعفة(القرطاجني، 1966، ص 259–260 )، إضافة إلى أن هذا البحر يحتفظ بالاسترسال والامتداد ؛ لأن نسبة السواكن فيه قليلة ( عصفور، 1983، ص 254 )، وهذا البحر منح الشاعر طلاقة في التعبير عن عالمه الداخلي والخارجي بقدرة تامة، ولذلك لم يكن عبثا أن يختار الشاعر البحر الطويل، فهو بحر مملوء بالجلال ويعطي الشاعر أكثر من فرصة لخلق تجربته أو إعادة خلقها لرحابته، ولأن تفعيلاته متغايرة لا متجانسة.

فالبحر الطويل بحر سخي وقد أكثر منه القدماء وجاء معظم الشعر القديم على إيقاعه، وهو لا يعطي إمكاناته إلا للشعراء الكبار المتمكنين من أدواتهم الفنية والممتلئين بالموهبة المتفجرة.وهذا يتفق وحال الشاعر الذي يعيش في غربة بعيدا عن أهله ووطنه، وهذا ما أشار إليه أبو حيان التوحيدي في قوله ".. الغريب كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغذاؤه

حزن، وعشاؤه شجن، وخوفه وطن " ( التوحيدي، د.ت: ص 196/1)، لذلك ينشأ عند الشاعر الغريب ما يسمى بالوعي بالذات، وهذا النوع يلقي بظلاله الحزينة على عالمه التشكيلي وبالتالي على عالمه الموسيقي. وأما البحر الآخر الذي استخدمه الشاعر فهو البحر البسيط، وهو بحر تجود فيه حالات الشجن والانكسار. لذلك جاءت اللغة وقوالبها وموسيقاها معبرة وبشكل دقيق عن الغربة النفسية عند الشاعر، إذ استطاع أن يجعلنا نشعر بما يشعر به.

## الخاتمة

كشف البحث عن علاقات نفسية تواصلية مترابطة، وصلت بالشاعر إلى حالة من الشعور بالغربة النفسية المؤلمة، علما أنه حاول التخفيف من هذه الغربة بالاستئناس بالحيوانات ومعايشتها، ولكنها كانت المعادل الموضوعي لما يدور في ذهنه، فقد سيطر الاضطراب والهم والقلق على فكر الشاعر، مما أدى به إلى نظرة تشاؤمية إلى الحياة التي يعايشها، وكان الحنين هو الطريق الوحيد للتعويض عما يشعر به من نقص داخلي، ولكنه لم يسعفه، بل زاد من حدة غربته.كل هذه القضايا جاءت بلغة حزينة معبرة استطاعت أن ترسم لنا بوضوح غربة الشاعر المؤلمة.

## المراجع

اعتمدت في دراسة شعر الشاعر وتحليله على ديوانه، تحقيق نوري حمودي القيسي " ضمن كتاب " شعراء أمويون " الجزء الأول، منشورات جامعة الموصل، العراق، ط 1، 1976. أما بقية المصادر والمراجع التي أفدت منها، فهي:

- إبراهيم، طارق، (1980)، الدماغ البشري، دار الحرية، بغداد.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، ( 1964 )، الشعر والشعراء، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، مصر.
- ابن قيم الجوزية، ( 1984)، مدارج السالكين، دار الحديث، القاهرة.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، ( 1951 )، لسان العرب، المطبعة الأميرية، بولاق.
- آرسطو طاليس، (1986 )، الخطابة، ترجمة عبدالرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
- إسماعيل، عز الدين، (1963)، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، مصر.
- الأصفهاني، أبوالفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي، ( 1959 )، الأغاني، تحقيق عبدالستار أحمد سراج، دار الثقافة، بيروت.
- امرؤ القيس، (1959)، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط 4.
- البكري، أبو عبدالله بن عبدالعزيز، (1936)، سمط اللآلي، تحقيق عبدالعزيز الميمني، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- بنت الشاطىء، عائشة عبدالرحمن، (1970)، قيم جديدة للأدب العربي، دار المعارف، مصر.
- التوحيدي، أبو حيان، (د.ت )، الإمتاع والمؤانسة، ضبط وتصحيح أحمد أمين وأحمد الزين، ط المكتبة العصرية، بيروت.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ( 1950)، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1963 )، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة
- الجرجاني، عبدالقاهر، (1984)، التعريفات، الدار الوطنية للنشر، بغداد.
- الجلبي، آن، (2007)، مجلة جامعة تكريت، بواعث الخوف في شعر عبيد بن أيوب العنبري، مجلد 14 عدد 1.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، ( 1990 )، الصحاح، تحقيق أحمد عبدالغفور، دار العلم للملايين، بيروت.
- الحموي، ياقوت بن عبدالله الرومي، ( د.ت )، معجم البلدان، تحقيق فيتسنفلد.
- زراقط، عبد المجيد، (1983)، الشعر الأموي بين الفن والسلطان، دار الباحث، بيروت، ط1.
- الزير، محمد حسن، ( 1989 )، الحياة والموت في الشعر الأموي، دار أمية، الرياض، ط1
- السويدي، فاطمة، (1997)، الاغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1.
- الضَّبَعي، المتلمس، (1998)، ديوانه، تحقيق محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط 1.
- عبدالحميد، يسرسة، ( 1979)، "شعر الصعاليك في العصر الأموي " رسالة ماجستير، مخطوطة، جامعة عين شمس، القاهرة
- عصفور، جابر، ( 1983)، مفهوم الشعرفي التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- عطوان، حسين، (1970)، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، دار المعارف، مصر.
- غالب، مصطفى، (1978)، تغلب على الخوف، بيروت.
- فاخر، عاقل، (1967)، علم النفس عند فرويد، ترجمة أحمد عبدالعزيز سلامة وسيد أحمد عثمان، مطبعة الإنجلو المصرية.
- فرويد، سيجموند، (1962)، القلق، ترجمة محمد عثمان نجاتي، لجنة التأليف والتجمة والنشر، القاهرة.
- القرطاجني، حازم، (1966)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.
- الكلابي، طهمان، (2002)، ديوانه، تحقبق محمد مسعود، دار الفكر، بيروت، ط 1.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد الأسدي، (د.ت)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق زكي مبارك وأحمد شاكر الحلبي، ط القاهرة.
- المرزوقي، أحمد، (1989)، الفكر السيكولوجي المعاصر، " محاولة نقدية "، السعودية، ط 1.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، ( 1973 )، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف داغر، دار الأندلس، بيروت.
- ملاحي، علي، (1989 )، الجملة الشعرية في القصيدة الجديدة، مضمونها وخصائصها " رسالة ماجستير، مخطوطة، جامعة عين شمس، القاهرة.